أصول النظرية الاجتماعية في القرآن الكريم

أ.م.د.
عبدا لرزاق جدوع محمد
جامعة ديالى/ كلية التربية الأساسية
قسم الجغرافية

٢٠١١

المحتويات

المبحث الأول : العلاقة بين القرآن الكريم والنظريات الاجتماعية.

المبحث الثاني : أصل نظرية الصراع بين الحضارة والبداوة عند ابن خلدون في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: أصل نظرية التبادل الاجتماعي في القرآن الكريم.

المقدمة:

نتناول في هذا البحث المتواضع الأصول الأولى للنظريات الاجتماعية عند علماء الاجتماع في القرآن الكريم ، إذ إن القرآن الكريم سبق علماء الاجتماع في الإشارة إلى أسس هذه النظريات : كنظرية الصراع بين الحضارة والبداوة عند ابن خلدون ونظرية التبادل الاجتماعي عند عالم الاجتماع بيتر بلاو والنظرية الاجتماعية عند أميل دوركهايم وماكس فيبر .

إن سور وآيات القرآن الكريم كانت وثيقة الصلة بالواقع ، لذا فهي لم تأتي دفعة واحدة في كتلة متماسكة مثل ألواح موسى عليه السلام ، بل تتابعت متفرقة ومنسجمة ليقرأه النبي على الناس على مكث وعلى مهل حسبما قررت آيات القرآن ذاتها ، وقد استمر تواتر آيات القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي عمر ذلك الوحي بالمقاييس الزمنية البشرية ، وإبان تواتر آيات القرآن تواصلت تلك الآيات مع الواقع الإنساني الأرضي أخذاً وعطاءً في جدل ينفعل بالواقع ويفعل فيه يتأثر بمتغيراته ويعود ليغير فيه ، وهو ما يعني أن هذا النص لم يهمل الواقع وحراكه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، بل عمد إلى إبراز تفاعله معه وتبدله بتبديل الظروف الإنسانية والموضوعية البحتة بكل ما للإنسان وكل ما عليه بغرض تأكيد دور الإنسان الفاعل في صياغة الواقع .

وهكذا كان وقع النص القرآني الحثيث للمؤمنين به نحو التغير والتكيف مع مقتضيات الأحوال الواقعية ، والأخذ بالعوامل الموضوعية والابتعاد بالناس عن منهج الاعتماد والتواكل .

إن عالم الاجتماع ابن خلدون قد استفاد من القرآن الكريم في إنشاء نظريته الاجتماعية فائدة غير قليلة ، لاسيما من حيث ذم الترف وتبيان أثره في هلاك الأمم . فقد وردت في القرآن آيات عديدة في هذا الشأن من قبيل قوله تعالى ((وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها

تدميرا))[1] وقوله تعالى ((وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون)[2]

ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية يجد تشابهاً بينها وبين ما جاء في مقدمة ابن خلدون من ذم للترف والمترفين ، فالقرآن الكريم ذم الترف لكي يحذر الناس من عواقبه السيئة في دينهم ودنياهم فهو إيذان بخراب المجتمع أو انه غاية العمران وفساد الحضارة كما يقرر ابن خلدون .

كما أن جذور نظرية التبادل الاجتماعي ماثلة في القرآن الكريم في الآية الكريمة ((وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص))[3] كما نجد أن القرآن الكريم يبين الجوانب الأساسية للنظرية من خلال حث الإنسان على زيادة رصيده اجتماعيا وإنسانيا عبر محبة الآخرين والاندماج معهم والتفاعل معهم والتعاون معهم بقوله تعالى ((ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم))[4]. كما أن القرآن الكريم يدعو إلى التعاون والألفة والمحبة والأمل في الحياة وهذه الدعوات تخفف عن الإنسان مصائب وكوارث الطبيعة ، فتكون العودة إلى الدين بمثابة عودة الإنسان إلى الوعي من جديد ، وبدون العودة إلى الدين يعيش الإنسان في صراع نفسي قد يقوده إلى الانتحار كما يؤكد عالم الاجتماع الفرنسي أميل دوركهايم .

إن القرآن الكريم يدعو في كثير من آياته إلى العقلانية في التعامل مع شؤون الحياة فمن اخذ بها تقدم في الحياة إلى الإمام ومن تخلف عنها تراجع إلى الوراء ، وهذه العقلانية تتجسد في القيم الاجتماعية والأخلاقية التي تتمثل بالصدق والإخلاص في العمل والأمانة وطلب العلم والعمل ونبذ التكاسل والتواكل .نأمل أن يكون بحثنا فمينا بالقبول من الوجهة العلمية والله من وراء القصد .

---

[1]- سورة الإسراء: آية : ١٦

[2]- سورة سبأ: آية: ٣٤

[3]- سورة المائدة : آية: ٤٥

إن رواد التنظير الاجتماعي الأوائل من أمثال ابن خلدون و(اوكست كونت) و(هربرت سبنسر) و(ادورد تايلر) و(دوركهايم) وعشرات غيرهم لم يصوغوا نظرياتهم بناء على بحوثهم الميدانية بل اعتمدوا على المعلومات والوثائق المطبوعة فضلا عن ملاحظاتهم الفكرية والنظرية ، ونتيجة لضعف منهج الميدان والتجريب في الأوساط الفكرية في بداية المراحل التكوينية لنشأة علم الاجتماع ، فان النظريات الاجتماعية جاءت في صيغ تعاني من الغموض وضعف الأدلة والتصوير غير الواقعي على الرغم مما طبعها من طموح علمي.

ونحن كباحثين عرب نستطيع الإفادة من متغيرات واقعنا فنستنبط منه ما تنطوي عليه هذه المتغيرات من تحولات اجتماعية وما في هذه التحولات من دلالات علمية تسمح بوضع الصيغ النظرية العربية ، وبهذا يسهم الباحثون العرب بتنمية ما يمكن إن يصبح سوسيولوجيا الفكر العربي[٤].

إن القران الكريم يصور لنا التفاعل الاجتماعي باجلى صوره، وحين يقرأه الباحث في ضوء النظريات الاجتماعية الحديثة يبدو التاريخ أمامه زاحفا بهديره وضجيجه، التاريخ في القران عبارة عن صراع مرير بين رجال من طراز فرعون ورجال من طراز موسى، وفي كل زمان موسى وفرعون، فالتاريخ إذن لا يهدأ ولا يفتر، فهو يطلع علينا في كل يوم بطور جديد ينسينا الماضي ويحركنا نحو المستقبل.

لقد كثرت البحوث والدراسات العلمية حول دور القرآن الكريم في الدراسات الإنسانية ، وظهرت كتب وبحوث عديدة عنه في البلاد العربية والإسلامية ، وكان هدفهم من ذلك أن يظهروا ما كان للقرآن الكريم من أسبقية على تلك العلوم ، بيد أن دور القرآن الكريم في علم الاجتماع ونظرياته لم يلق الاهتمام الكبير من قبل الباحثين في علم الاجتماع ، لذا جاءت محاولتنا لتغطي بعضا من النقص في هذا المجال، إذ وجدت أن الكثير من آيات القرآن الكريم تحمل معاني ودلالات اجتماعية ذات صلة وثيقة بواقع الحياة.

---

[٤] - ألنوري، قيس (د)، والحسيني ، عبد المنعم (د)، النظريات الاجتماعية، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٥، ص٩.

ومن بين الدراسات التي تناولت القرآن الكريم موسوعة القرآن الكريم التي قامت بنشرها مكتبة (بريل) في هولندا والتي نشرت في السابق الموسوعة الإسلامية والتي أصبحت مرجعا لكل باحثي العالم(٥).

لذا كان حري بي أن أقدم هذه الدراسة المتواضعة عن القرآن الكريم ، متلمسا الآيات التي تضمنت الوقائع التاريخية من منظور اجتماعي لنثبت بذلك أن هذا الكتاب السماوي كان فاعلا في الأرض، محركا لأحداث التاريخ.

يتألف البحث من ثلاثة مباحث أساسية وهي:

أولا: العلاقة بين القران الكريم والنظريات الاجتماعية.

ثانيا : أصل نظرية الصراع بين الحضارة والبداوة عند ابن خلدون في القران الكريم.

ثالثا: أصل نظرية التبادل الاجتماعي في القران الكريم.

المبحث الأول : العلاقة بين القرآن الكريم والنظريات الاجتماعية

سنتناول بالبحث والدراسة العلاقة بين القرآن الكريم والنظريات الاجتماعية ، ذاكرين في الوقت ذاته مفاهيم البحث مبتدئين بمفهوم القرآن في اللغة والاصطلاح ، فالقرآن في اللغة لفظ مشتق من القراءة ، ويطلق على الكتاب كله أو جزء منه ، وهو يتألف من أجزاء جمع بعضها إلى بعض وان كل حرف منه موصى من عند الله، ويختلف عن التوراة في انه كله نطق به رجل واحد، ومن اجل هذا فهو لا يعادله في آثاره أي كتاب آخر جاء به رجل واحد ، وقد أملى النبي في أوقات مختلفة ما كان يوحى إليه من آياته ، وكان كل ما يوحى به إليه يكتب على الرق ، أو الجلود أو سعف النخيل ، أو العظام ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون إن يراعي في ذلك ترتيب زمني، ولم تجمع هذه الآيات كلها في كتاب واحد في حياة النبي، ولكن بعض المسلمين كانوا يحفظونها عن ظهر قلب، وكل آية من آيات

٥- أركون، محمد (د)، حوار حول التراث والتفاوت التاريخي، مجلة دراسات عربية، العدد ٦/٥ آذار ١٩٩٨ ص٤١.

القران كانت تؤدي غرضا واضحا مفهوما، فهي إما أن تقرر عقيدة أو تأمر بصلاة أو دعاء أو تسن قانونا، أو توجه إلى عمل أو تروي قصة ،... الخ([٦]).

ذكر المفسرون والمؤلفون في علوم القران جملة معاني للفظ القران فصنفوا الآراء التي قال بها في الموضوع كل من اللغويين ورواة السيرة وغيرهم في رأيين:

١. فريق يقول أن لفظ القران غير مهموز (قرآن)، بمعنى انه ليس من القراءة ، من هؤلاء من قال انه اسم علم (غير مشتق) لكتاب الله تعالى مثلما أن التوراة اسم علم للكتاب الذي انزل على موسى (عليه السلام)، والإنجيل اسم علم للكتب التي كتبها الحواريون حول دعوة عيسى (عليه السلام) وسيرته(الأناجيل)، ومنهم من جعله مشتقا من (قٌرنت) الشيء بالشيء ، إذا ضممت احدهما إلى الآخر، بمعنى إن آياته وسوره ضم بعضها إلى بعض بعد أن نزل منجما مفرقا، وآخرون قالوا بل انه مشتق من القرائن لان الآيات منه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا وهي قرائن ، وفي جميع هذه الأقوال فهو من دون همز، ونونه أصلية.

٢. أما الفريق الثاني فيرى بالعكس من ذلك، أن لفظ القران مهموز، ولكنهم اختلفوا في صيغته : منهم من قال : هو وصف على فعلان مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته وبناء على هذا قال بعضهم : وسمي (القران) بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض، وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وفي هذا المعنى قيل انه جمع أنواع العلوم كلها، وحكي عن بعضهم (إن القران سمي قرآنا لان القارئ يظهره ويبينه من فيه آخذا من قول العرب ما قرأت الناقة سلا قط : أي ما أسقطت ولدا أي ما حملت قط، والقرآن يلقطه القارئ من فيه ويلقيه فسمي قرآنا). وهذه التأويلات بعيدة عن المعنى الظاهر للكلمة والذي تذكره كتب اللغة ، فالقرآن لغة من قرأ يقرأ قرآنا، وهذا ما تؤكده أول آية نزلت (اقرأ باسم ربك) أضف إلى ذلك قوله تعالى (لا تحرك به لسانك

---

[٦]- ديورانت، ويل، قصة الحضارة ، ج٢، ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة ، لا يوجد تاريخ نشر، ص٤٨-٤٩.

لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرانه، فإذا قراناه فاتبع قرانه، ثم إن علينا بيانه)([٧]). وبهذا الاعتبار يكون لفظ القران عندما يراد به ما بين دفتي المصحف([٨])

أما النظرية الاجتماعية فهي نظام تجريدي يجمع بين الأفكار ويوحد بينها في قالب يعكس معنى المفاهيم التي يطرحها العالم في سياق أبحاثه الأكاديمية ، أما معنى النظرية الاجتماعية فقد كان متعلقا بالدراسات الفلسفية والسياسية، ولا يمكن فهم النظرية من دون فهم المفاهيم التي تشكل المادة الأساسية لها، فالفرضية مجموعة من الأفكار والآراء والمفاهيم والحقائق غير المبرهنة وغير المعززة بالأرقام والبيانات الإحصائية، والفرضية تبنى من الأفكار والآراء (Notion) التي يكتسبها الأفراد من بيئتهم وواقعهم وتجارب احتكاكهم وتفاعلهم مع الآخرين ومن مصالحهم الشخصية وطموحاتهم الحياتية([٩]).

والنظرية حسب المنظور العلمي الحديث هي بناء فكري منسق يتم التوصل إليه عن طريق الاستيعاب التصوري الناجح والذي يحتوي على طائفة أو مجموعة من القوانين المتصلة بتكرارات موجودة في بعض الأشياء والأحداث المنظورة أو المدركة عن طريق الفكر العقلاني([١٠]).

المبحث الثاني: أصل نظرية الصراع بين الحضارة والبداوة عند ابن خلدون في القرآن الكريم

قدمنا فيما مضى إن ابن خلدون قد استفاد من القرآن الكريم في إنشاء نظريته الاجتماعية ، والآن نحاول دراسة الجوانب التي استفاد منها ابن خلدون في نظريته عن الحضارة والبداوة وهي كالأتي:

---

[٧]- سورة القيامة ، الآيات ١٦-١٩.

[٨] -الجابري، محمد عابد(د)، مدخل إلى القران الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ٢٠١٠، ص١٥٠

[٩]- الحسن، إحسان محمد (د)، النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مطبعة الرسائل، بغداد، ص٧-٨.

[١٠]- ألنوري، قيس (د)، والحسيني ، عبد المنعم (د)، النظريات الاجتماعية،مصدر سابق ،ص٩.

١- الصراع بين الحضارة والبداوة

يعد ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) من أوائل المفكرين الاجتماعيين الصراعيين، إذ تناول الصراع بين البداوة والحضارة تناولا تاريخيا علميا في كتابه الموسوم "العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" والذي يقع في اثنا عشر مجلدا أولها كتاب المقدمة وأخيرها كتاب السيرة ،أي تاريخ حياة ابن خلدون الذي فضل ابن خلدون كتابته بنفسه لكي لا يزور أو يفترى عليه.

لقد استفاد ابن خلدون في نظريته الصراعية من القرآن الكريم لاسيما قوله تعالى (إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)(١١).

إن ابن خلدون استطاع أن يحول هذا القول من إطاره الديني إلى إطاره الاجتماعي، فيبين إن هلاك الأمم ناتج عن سقوط الملك أو الخلافة أو المجتمع ، إذ يسيطر البدو على الملك بعد أن يستقروا في المنطقة الحضرية (١٢).

وعندما يستقروا في المنطقة الحضرية يفقدون روابطهم القبلية القائمة على وحدة الدم ، فيصبحوا من جراء ذلك مترفين ضعفاء ، معرضين للسقوط من قبل هجمات الجماعات البدوية التي تترصدهم دائما ، وبناءا على ذلك يستنتج ابن خلدون بان جميع الكائنات سواء كانت إنسانية أو حيوانية تخضع لقوانين النمو والانحطاط(١٣).

إن رغبة سكان البدو بالاستئثار بالقوة والحكم ،وعدم رغبة سكان الحضر بذلك يساعد على سيطرة البدو على الحكم في الحضر لاسيما وان البدو يتسمون بشظافة العيش وصعوبة ظروف الحياة ، بينما سكان الحضر يتميزون بالرقة والوداعة والنعومة ، لذا ينتصر البدو على الحضر ويقيمون دولة على أنقاضها(١٤).

---

١١ - سورة الإسراء ، آية: ١٦.

١٢- الحسن ، إحسان محمد (د) ، النظريات الاجتماعية المعاصرة ،مصدر سابق ، ص١٢٧

١٣- شمت ،ناشا نيل ،ابن خلدون ،دار المأمون ،ترجمة د.إحسان محمد الحسن ، بغداد ،١٩٩٩ ، ص٧٤

١٤- بوتول، جوستن ،ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية،ترجمة غنيم عبدون ،المؤسسة العربية للكتاب،القاهرة ،١٩٩٩،ص٨٠-٨١

إن النصوص القرآنية التي تتحدث عن الترف صريحة هنا ،ولا بد من التوقف عند بعض المفاهيم التي تبدو غنية وغامضة في ذات الوقت . وإنها إيحائية أكثر من كونها تشريعية .

فمفهوم (ترف) لم ترد ولو مرة واحدة بدون أن تكون مصحوبة بالتشنيع والتهديد ، فمن هو المترف حسب الروح القرآنية، انه الشخص الذي اكتسب بسبب غناه مكانه خاصة في مدينته فهو ذو نفوذ اقتصادي وسياسي . وهو من اجل هذا ، الرجل الذي تعود على التصرف في الآخرين بسبب هذا الجاه الاقتصادي الواسع وتصرفه هو دائما تصرف ينافي الأخلاق انه (الظالم)(الطاغي) المطبوع على قلبه لأنه متكبر جبار، فكان الروح القرآنية هنا تؤكد حتمية لا مفر منها ، وهي تلك الحتمية التي تجعل الترف مقرونا بالظلم في جميع الأحوال . والمترف هو ليس كل غني ، فالغني أساسا هو الاستغناء عن الناس، أي انه حالة الرجل الذي يقي بحاجياته الأساسية . وانه صاحب المال المقتصد في تصرفاته ، ولكن الرمز القرآني أكثر إبرازا لوصف المترف هو رمز (قارون) الذي خرج عن أمته وتحالف مع أعدائها لحفظ مصالحه، فكبرياؤه وزينته جعلت منه الرجل الفاسق الذي يقود بنفسه إلى الهلاك[١٥] .

إن الإنسان البدائي الموغل في الصحراء لا يفكر ولا يتزندق أبدا والشك والتزندق لا يأتيان إليه إلا عندما يحتك بالمتمدنين وتصيبه عدواهم ، ويذكر دورانت بهذا الصدد : إن البدائيين في استراليا لا يمكن تشغيلهم بأجور تدفع بعد حين فهم يريدون الأجر حالاً ، وإذا حصل احدهم على شيء من المال نتيجة عمله انقطع عن العمل حتى ينفذ ماله ، فيرجع إلى العمل مرة أخرى ، ويعلق دورانت على هذا فيقول " في اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان بالتفكير في غده يخرج من جنة عدن إلى هاوية القلق فتعلو وجهه آنذاك صفرة الغم ويشتد فيه الجشع وحب التملك وبذا تزول عنه الغبطة البلهاء [١٦].

---

[١٥] - مزيان ،عبد المجيد، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، مؤسسة الوحدة للنشر، الكويت، ١٩٨١ ،ص ٥٣

[١٦] - الوردي ، علي (د) ، مهزلة العقل البشري ، دار الوراق للنشر ، لندن ، ١٩٩٦ ، ص٣٠ .

إن الإنسان وفق التصور القرآني يحب الحياة الدنيا ويقبل عليها كلما تقدمت المدينة أو تقدمت الحضارة لذا قال الله تعالى ((كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة)) ([١٧])، ويقول الله تعالى ((وتأكلون التراث اكلاً لما ، وتحبون المال حباً جماً)) –([١٨])، وقوله تعالى ((وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين)) ([١٩]) .

كما وتبرز الرؤية القرآنية حول طبيعة الإنسان وتحولها بتغير الظروف المادية ، ذلك إن طغيان الإنسان مقرون بجمع المال فيقول سبحانه وتعالى ((إن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى ...))([٢٠]) وقوله ((إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعاً))([٢١]).

٢– العصبية عند ابن خلدون

يعتقد ابن خلدون ان العصبية تكون في أوج قوتها وأوضح معالمها لدى البدو ، فهؤلاء متوغلون في الصحراء وهم لذلك بعيدون عن تأثير الحضارة وما فيها من ظلم وترف ، أما الدولة فهي لا تظهر إلا في الحضارة ، وهي من العوامل التي تحدث الظلم والترف [٢٢].

إن مفهوم العصبية قد ورد في القرآن الكريم بإطار ديني ولكنه يحمل دلالات اجتماعية واقعية ، وذلك عندما دعي نبي الله شعيب قومه إلى الإيمان فرفضوا دعوته وقالوا له ((ما نفقه كثيراً مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ، قال يا قومي أرهطي اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعلمون محيط)) ([٢٣]).

---

[١٧] - سورة القيمة: الآية : ٢٠

[١٨] - سورة الفجر: الآية :١٩ -٢٠

[١٩] - سورة الجمعة : الآية : ١١

[٢٠] -سورة العلق : الآية : ٦ - ٧

[٢١] - سورة المعا رج : الآية ١٩–٢١

[٢٢] -الوردي ، علي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، المكتبة الحيدرية ، ١٩٩٧ ، ص٢٩٥ .

[٢٣] - سورة هود: الآية : ٩١–٩٢

يؤكد القرآن الكريم في بعض آياته على حقيقة اجتماعية مفادها (إن الله لا يكاد يرسل نبياً إلى قوم حتى يقاومه المترفون منهم ويتبعه المستضعفون ، والقرآن يذكر أقوال المترفين ويحصرها بالنقاط التالية :

١- يقول المترفون((إنا وجدنا آباءنا على امة وانأ على آثارهم مقتدون)) ([٢٤]).

٢- وكذلك يقولون ((نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)) [٢٥]

٣- ويقولون للنبي ((أنؤمن لك واتبعك الأرذلون))[٢٦] ويقولون له أيضا ((ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأي وما نرى عليكم من فضل بل نظنكم كاذبين)).[٢٧]

إن البحوث الاجتماعية توافق القرآن من هذه الناحية موافقة تكاد ان تكون تامة ، فالمترفون في كل امة يقاومون الحركات الاجتماعية الجديدة وهم يعتزون بتقاليدهم الموروثة أولا ، وبأموالهم المقنطرة ثانياً وبمكانتهم الاجتماعية ثالثاً ، وهذا يشابه ما قال به القرآن إلى درجة تدعو إلى التأمل [٢٨].

لقد استفاد ابن خلدون من هذه الرؤية القرآنية للصراع بين المترفين والفقراء ، واستفاد من ذم القرآن للترف وهذا الذم دفع ابن خلدون إلى القول بأن الترف يؤدي بأصحابه إلى التخلق بالأخلاق السيئة كالكذب والمقامرة والغش والخداع والسرقة والفجور في الإيمان والربا في المبيعات ، كما دفعه إلى اعتبار أن بعض هذه الصفات أمر طبيعي في الحضارة تؤدي إليها عادات الترف من حيث التأنق في المطابخ والملابس والمباني والفرش، إذ يقول ابن خلدون (ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف) [٢٩].

المبحث الثالث :أصل نظرية التبادل الاجتماعي في القرآن الكريم

---

[٢٤]- سورة الزخرف : آية : ٢٣

[٢٥]- سورة سبأ: آية: ٣٤ .

[٢٦]- سورة الشعراء: آية : ١١١

[٢٧]- سورة هود: آية : ٢٧

[٢٨]- الوردي ، علي (د) ، مهزلة العقل البشري ، مصدر سابق ، ص٢٤٩ .

[٢٩] - مقدمة ابن خلدون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ص٨٧٦ .

إن نظرية التبادل الاجتماعي تؤمن بأن الحياة الاجتماعية ما هي إلا عملية تفاعلية تبادلية ، بمعنى إن أطراف التفاعل تأخذ وتعطي لبعضها البعض ، بينما إذا أسس الفرد علاقته التفاعلية على مبدأ الأخذ دون العطاء أو العطاء دون الأخذ فان العلاقة لابد أن تفتر وتبرد بل وتنقطع وتتلاشى عن الأنظار ، ومن مؤسسي هذه النظرية أ.ج. كيلي ، وجي ثيبوت وجورج هومانز .

إن العطاء الذي يقدمه الفرد أو الجماعة للفرد الآخر أو الجماعة الأخرى هو الواجبات الملقاة على عاتقهما ، بينما الأخذ الذي يحصل عليه الفرد من الفرد الآخر هو الحقوق التي يتمتع بها بعد أدائه للواجبات ، والحقوق والواجبات لا تتحدد بالمجالات المادية بل تتحدد أيضا بالمجالات القيمية والمعنوية والروحية والاعتبارية [٣٠].

وتتجلى نظرية التبادل الاجتماعي في القرآن الكريم من خلال الحقوق بين الله والعبد وبين العباد أنفسهم ، فالله سبحانه وتعالى أعطى للإنسان كل شيء مقابل عبادة الإنسان وتقواه لله ، كما تبرر العلاقة التفاعلية التبادلية بين العباد في النصوص القرآنية فالقرآن لم يترك امرأ إلا وتحدث عنه بالنسبة للحقوق الإنسان .

إن استناد حقوق الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى قد أعطاها قدسية وقوة إلزام يتحمل مسؤولية حمايتها كل فرد لان الله تعالى هو الذي صاغ هذه الحقوق .

وأهم حق منحه الله سبحانه وتعالى للإنسان هو حق الاعتراف بكرامة الإنسان : ((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً))[٣١].

ويتضح حق الحياة في الإسلام عندما ننظر إلى العقوبات التي فرضها الله تجاه القاتل الذي ينهي حياة شخص دون حق بقوله تعالى : ((ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)) [٣٢].

---

[٣٠]- الحسن ، إحسان محمد (د) ، النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مصدر سابق ، ص١٩٣ .

[٣١]- سورة الإسراء : الآية: ٧٠

[٣٢]- سورة البقرة : الآية: ١٩٠

أما حرية التفكير والاعتقاد والتعبير فان الله اقرها لبني البشر ، فالإنسان حر في اختيار عقيدته ودينه ((لكم دينكم ولِيَ دينِ))[٣٣] ،والإنسان حر بفطرته ((الإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي))[٣٤]، كما أن القرآن الكريم يقر الناس جميعاً على عقائدهم التي اختاروها من خلال تفكيرهم : ((إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) [٣٥].

والإسلام يضمن حقوق غير المسلمين على أسس العدالة والمساواة [٣٦]، كما أن حقوق المرأة ماثلة في القرآن الكريم في قوله تعالى ((ياءيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوب وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم))[٣٧].

ويبرز التبادل بين الله والعبد بأن الله سبحانه وتعالى أعطى حق للإنسان في العلم والتعليم ، في قوله تعالى ((اقرأ باسم ربك الذي خلق))[٣٨] أما بالنسبة للعمل فقد أباح الله للإنسان العمل بعده المصدر الأساسي للملكية ((وامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور))[٣٩]، وضمن الله حق التملك بقوله تعالى ((ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل))[٤٠]، وضمن الله حقوق العامل[٤١] بقوله ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنين))[٤٢].

وإزاء هذه العطايا التي منحها الله سبحانه وتعالى إلى بني البشر هناك واجبات يؤديها الإنسان إلى الله ، وإذا اخفق الإنسان في تلبية هذه الواجبات والمهام فانه سيعاقب عقاباً شديداً .[٤٣]

---

[٣٣]- سورة الكافرون : الآية: ٦

[٣٤]- سورة البقرة : الآية: ٢٥٦

[٣٥] -سورة البقرة : الآية: ٦٢

[٣٦] - حنفي ، حسن (د) ، حصار الزمن ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص٣٦٥ .

[٣٧] -سورة الحجرات : الآية : ٤٩

[٣٨]- سورة العلق : الآية: ١

[٣٩] -سورة الملك : الآية: ١٥

[٤٠] سورة البقرة :الآية: ١٨٨

[٤١] هادي ، رياض عزيز (د) ، حقوق الإنسان ، مكتبة السنهوري ، بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص١١-١٦ .

[٤٢] سورة التوبة : الآية: ١٠٥

[٤٣] شلحت ، يوسف ، مدخل إلى علم اجتماع الإسلام ، تعريب خليل احمد خليل ، دار الفارس للنشر ، عمان ، ٢٠٠٣ ، ص١٤٢ .

يرى عالم الاجتماع بيتر بلاو أن اختلال التوازن بين النفقات والإرباح بين الإفراد والجماعات لا يسبب قطع العلاقات بل يقود إلى تقويتها وديمومتها بين أطرافها ، فالطرف الذي يعطي أكثر مما يأخذ من الطرف الآخر يجعل الطرف الآخر في موقع مكافأة الطرف الأول ، وعندما يكافأ الطرف الثاني الطرف الأول فأن العلاقة تقوى كما يرى بيتر بلاو .

في هذا السياق نجد أن القرآن الكريم قد أشار إلى هذا المبدأ النظري في النظرية بقوله تعالى ((ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة فانه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم)) (٤٤).

خلاصة البحث

١-إن سور وآيات القرآن الكريم كانت وثيقة الصلة بالواقع ، لذا فهي لم تأتي دفعة واحدة ، بل تتابعت متفرقة ومنسجمة ليقرأه النبي على الناس على مكث وعلى مهل حسبما قررت آيات القرآن ذاتها ، وقد استمر تواتر آيات القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً هي عمر ذلك الوحي بالمقاييس الزمنية البشرية ، وإبان تواتر آيات القرآن تواصلت تلك الآيات مع الواقع الإنساني الأرضي أخذاً وعطاءً في جدل ينفعل بالواقع ويفعل فيه يتأثر بمتغيراته ويعود ليغير فيه ، وهو ما يعني أن هذا النص لم يهمل الواقع وحراكه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، بل عمد إلى إبراز تفاعله معه وتبدله بتبديل الظروف الإنسانية والموضوعية البحتة

---

٤٤ سورة فصلت : آية : ٣٤-٣٥

بكل ما للإنسان وكل ما عليه بغرض تأكيد دور الإنسان الفاعل في صياغة الواقع .

٢-كان وقع النص القرآني الحثيث للمؤمنين به نحو التغير والتكيف مع مقتضيات الأحوال الواقعية ، والأخذ بالعوامل الموضوعية والابتعاد بالناس عن منهج الاعتماد والتواكل .

٣- إن القران الكريم يصور لنا التفاعل الاجتماعي بأجلى صوره، وحين يقرأه الباحث في ضوء النظريات الاجتماعية الحديثة يبدو التاريخ في القرآن عبارة عن صراع مرير بين رجال من طراز فرعون ورجال من طراز موسى، وفي كل زمان موسى وفرعون، فالتاريخ إذن لا يهدأ ولا يفتر، فهو يطلع علينا في كل يوم بطور جديد ينسينا الماضي ويحركنا نحو المستقبل.

٤- لقد كثرت البحوث والدراسات العلمية حول دور القرآن الكريم في الدراسات الإنسانية ، وظهرت كتب وبحوث عديدة عنه في البلاد العربية والإسلامية ، وكان هدفهم من ذلك أن يظهروا ما كان للقرآن الكريم من أسبقية على تلك العلوم ، بيد أن دور القرآن الكريم في علم الاجتماع ونظرياته لم يلق الاهتمام الكبير من قبل الباحثين في علم الاجتماع ، لذا جاءت محاولتنا لتغطي بعضا من النقص في هذا المجال، إذ وجدت أن الكثير من آيات القرآن الكريم تحمل معاني ودلالات اجتماعية ذات صلة وثيقة بواقع الحياة.

التوصيات

١- ضرورة إجراء بحوث ودراسات اجتماعية حول القرآن الكريم

٢-دراسة القرآن في ضوء النظريات الاجتماعية الحديثة للاستفادة منه في تنمية وتطوير الواقع الاجتماعي للمجتمع العربي والإسلامي

٣- التوجه نحو إنشاء علم اجتماع القرآن الكريم

المصادر العلمية

١- سورة الإسراء آية (١٦)

٢-سورة سبأ آية (٣٤)

٣-سورة المائدة (٤٥)

٣- ألنوري، قيس (د)، والحسيني ، عبد المنعم (د)، النظريات الاجتماعية، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٥، ص٩.

٤- أركون، محمد (د)، حوار حول التراث والتفاوت التاريخي، مجلة دراسات عربية، العدد ٦/٥ آذار ١٩٩٨ ص.٤١

٥- ديورانت، ويل، قصة الحضارة ، ج٢، ترجمة محمد بدران، جامعة الدول العربية، القاهرة ، لا يوجد تاريخ نشر، ص٤٨-.٤٩

٦- سورة القيامة ، الآيات ١٦-.١٩

٧- الجابري، محمد عابد(د)، مدخل إلى القران الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، ٢٠١٠، ص١٥٠

٨- الحسن، إحسان محمد (د)، النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مطبعة الرسائل، بغداد، ص٧-٨.
٩-ألنوري، قيس (د)، والحسيني ، عبد المنعم (د)، النظريات الاجتماعية،مصدر سابق ،ص.٩
١٠- سورة الإسراء ، آية ١٦.
11- الحسن ، إحسان محمد (د) ، النظريات الاجتماعية المعاصرة ،مصدر سابق ، ص١٢٧
١٢ - شمت ،ناشا نيل ،ابن خلدون ،دار المأمون ،ترجمة د.إحسان محمد الحسن ، بغداد ،١٩٩٩ ، ص٧٤
١٣- بوتول، جوستن ،ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية،ترجمة غنيم عبدون ،المؤسسة العربية للكتاب،القاهرة ،١٩٩٩،ص٨٠-٨١
١٤ - مزيان ،عبد المجيد، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون، مؤسسة الوحدة للنشر، الكويت، ١٩٨١ ،ص ٥٣
١٥ مزيان ،عبد المجيد، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون،مصدر سابق،ص ٥٣
١٦الوردي ، علي (د) ، مهزلة العقل البشري ، دار الوراق للنشر ، لندن ، ١٩٩٦ ، ص٣٠ .
١٧- سورة القيامة الآية : ٢٠
18 - سورة الفجر الآية :١٩ -٢٠
١٩- سورة الجمعة : الآية ١١
٢٠ - -سورة العلق : الآية : ٦ - ٧
٢١- سورة المعا رج : الآية ١٩-٢١
٢٢ - الوردي ، علي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، المكتبة الحيدرية ، ١٩٩٧ ، ص٢٩٥ .
٢٣- سورة هود الآية : ٩١-٩٢
٢٤- سورة الزخرف ، أية : ٢٣
٢٥- سورة سبأ آية: ٣٤ .
٢٦- سورة الشعراء آية : ١١١
٢٧ -سورة هود آية : ٢٧
٢٨- -الوردي ، علي (د) ، مهزلة العقل البشري ، مصدر سابق ، ص٢٤٩ .
٢٩- مقدمة ابن خلدون ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ص٨٧٦ .
٣٠- الحسن ، إحسان محمد (د) ، النظريات الاجتماعية المعاصرة ، مصدر سابق ، ص١٩٣
٣١ - سورة الإسراء : الآية ٧٠
٣٢ - سورة البقرة : الآية ١٩٠
٣٣ - سورة الكافرون : الآية ٦
٣٤ -سورة البقرة : الآية ٢٥٦
٣٥ --سورة البقرة : الآية ٦٢
٣٦ - حنفي ، حسن (د) ، حصار الزمن ، مركز الكتاب للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٦ ، ص٣٦٥ .
٣٧ - سورة الحجرات : الآية ٤٩
٣٨ --سورة العلق : الآية ١
٣٩ - سورة الملك : الآية ١٥
٤٠- سورة البقرة : ١٨٨
٤١- هادي ، رياض عزيز (د) ، حقوق الإنسان ، مكتبة السنهوري ، بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص١١-١٦ .

٤٢- سورة التوبة : الآية ١٠٥

٤٣- شلحت ، يوسف ، مدخل إلى علم اجتماع الإسلام ، تعريب خليل احمد خليل ، دار الفارس للنشر ، عمان ، ٢٠٠٣ ، ص١٤٢ .

٤٤- سورة فصلت : آية ٣٤-٣٥